الطقوس النسائية والفضاء الاجتماعي

(الحمام الشعبي نموذجا)

بن زيان خيرة

استاذة مساعدة أ،بقسم علم الاجتماع ،جامعة مستغانم

مقدمة :

إن الحمام الشعبي يشغل مخيلة خصبة، مليئة بالطقوسات والممارسات والخطابات والعادات التي بلورها الأفراد حول هذا الفضاء الذي يعد مكان للمتعة والتطهر، فأول الخدمات التي يقدمها الخدمات بدون شك هي إمكانية إجراء ممارسات التطهير والتنظيف الجسد كاملا، هذه الممارسات التي غالبا ما تكون طويلة ومعقدة، يسهل أداؤها حين الإحساس بالمتعة والاسترخاء نتيجة عتمة المكان وحرارته .

فضلا عن تلبية حاجة الجسم عن النظافة والاسترخاء فمازال الحمام تمارس فيه العديد من الطقوس التي لم تختف حيث ظل مرفق مهم في الحياة الاجتماعية والدينية للمرأة وهذا ما أكسبه أن يحظى بأهمية كبيرة في يومية النساء، لهذا ارتبط فضاء الحمام عند المرأة بطقوس وعادات تتنوع وتختلف في أشكالها ودلالتها باختلاف المناسبات الدينية والتراثية والاجتماعية ، حيث أضحت تقريبا كل مناسبة متميزة بطقوس تناسبها وتنسجم معها.

فالطقس هي "كلمة لاتنية Ritus، وهي عبارة تعني عادات وتقاليد مجتمع معين كما تعني كل أنواع الاحتفالات التي تستدعي معتقدات تكون خارج الإطار التجريبي، فهو إعادة خلق وتبين لماضي غامض لكن يأخذ معناه عند الذين يستخدمونه على أنه فعل ديني".[1]

وتختلف الطقوس من مجتمع إلى آخر باختلاف الثقافات والذهنيات، إذ كانت ثقافة تعطي شرعية لطقوسها وتتبنى سلوكيات للتعامل مع هذه الطقوس وممارستها، فحضور الحمام في الطقوس والعادات المرتبطة بمناسبات المجتمع الجزائري خصوصا على مستوى الارتباط الوثيق الحاصل بين المرأة والحمام بمختلف فضاءاته، سوف نقف عند بعض هذه الطقوس التطهيرية والاجتماعيةالمترسخة في مجتمعنا.

الطقوس التطهيرية في الحمام :

1 . الطهارة والنجاسة :

التعليمات الإسلامية العديدة بالطهر كانت على دوام ملفت للنظر، فجوهر فعل التطهر هو فن التسامي بالجسد، فتحضرنا هنا إشكالية الطهارة وعلاقتها بالجسد، فالجسد هو أداة الإنسان للتقربإلى الله فبواسطته يتعبد، يركع ويسجد ويصوم ... لذا وجب

إخضاعه لشروط أولها وأهمها الطهارة، فقبل كل طقس ديني وجبت طهارة هذا الجسد بالاغتسال والقضاء على قذراته ووضعه في خدمة النفس والروح، فالنجاسة ليس أمرا نهائيا في الإسلام، ومن شأن تقنية التطهر أن تعيد الإنسان إلى طهارته الأصلية، فكلمة"التطهر قديمة قدم الإنسان وهي ما تزال تعيش معه، ممارسة دنية طقوسية تلتزم ظاهريا بآداب فردية واجتماعية والطهارة اسم يقوم مقام التطهر بالماء، الاستنجاء، الوضوء والغسل، القصد منها التقرب إلى الإله"[2]. وليس الطهارة تقنية في النظافة الجسدية بل هي بحث دائم في الروحانية وتطهير الباطن، فالغزالي يرفض كل تطهر ذا طبيعة آلية فكل مبالغة في تنفيذه، ويكون هدف التطهر الوحيد والنهائي في نظره "سكينة النفس والسيطرة على الجسد"[3] لذا ورد في مدخلها ما ورد فقد قال الله تعالى "فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين"[4] وفي قوله "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين"[5] وكذلك قوله "لا يمسه إلا المطهرون"[6]، فهذه الآيات تؤكد أن التطهر الظاهر من الأعضاء بل تطهير الباطن، حيث يرى الغزالي " أن جوهر المسألة يكمن في تطهير غرائب النفس، فالقلب والروح والنفس هي كلها ما ينبغي أن يتطهر أولا وليس الجسد وبهذا المعنى فإن الطهارة تشكل في نظره "نصف الإيمان"[7]، مسألة الطاهر والغير الطاهر جاء بها كل الديانات والثقافات، لقد أوضح دوركايم "أن التعارض بين الطاهر وغير الطاهر، هو تعارض بين عالمين غير متجانسين بشكل جذري، وأن الحياة الدينية تركز على هذين المحورين المتضاربين، والفرق بين الطاهر وغير الطاهر هو الفرق بين المقدس والمدنس الإله والشيطان، ولكن في نفس الوقت الذي يتناقص فيه هذا المطهران يوجد بينهما علاقة وثيقة، تتمثل في إمكانية المرور من أحدهما إلى الآخر، فيتحول من طبيعة إلى طبيعة الآخر معنى في حد ذاته، فيمكن القول أن الطاهر والدنس مصطلحات متكاملان ليس لأحدهما معنى في حد ذاته ولكن معنى كل منهما يتحدد بالنسبة

إلى الآخر وهما يشكلان إطارا أساسيا ومبدئيا للتفكير، ومع ذلك فإن لم تتميز هاتان الكلمتان فيما بينهما سيصبح من المستحيل أن تحدد في مجتمع معين التفرقة بين المقدس وغير المقدس والطاهر وغير الطاهر"[8] فالحدود الفاصلة بين النجس والطاهر تتمثل في الطهارة ويستوجب دخول واحد منهما ضرورة الخروج من الآخر .

فالجسد معرض للدنس والنجس وهو يؤدي وظائفه البيولوجية اليومية، غائط أو البول أو ريح، في هذه الحالات هو المقبل على الصلاة يجب أن يتوضأ كي يصبح أهلا للمثول أمام الله، فجسد المرأة هو الأكثر خضوعا لمسألة الطهارة، مقارنة بالرجل فتكوينها البيولوجي يجعلها في حالات تدنيس[9]، يدعوها للتطهر كي تصبح جديرة بممارسة طقوسها الدينية.

فالحمام كمؤسسة إسلامية بحتة، له دور في الطقوس التطهيرية والمرأة تجده كمكان للاغتسال والتنظيف والتطهر فهو ضروري لاسترجاع طهارتها المفقودة ،نتيجة الوظائف الحيوية الجنابة أو الحيض أو النفاس فالطهارة الطقوسية استعاد لشيء مفقود ولحالة القداسة. "ومن هنا يتحدد دور الطهارة، ويتضح جليا احتواء الغسل على معنى ميتافيزيقي، فهو بالتحديد أسلوب للتغلب على القلق والاضطرابات بحيث يقوم بامتصاص القوى الغامضة المواكبة للجماع والحيض والولادة، ويمكن للإنسان بالتالي معاودة وسيطرة عليه، وتأتي عملية الذهاب للحمام للطهارة لمعاودة إخضاع القوى الغامضة للسيطرة والتفنين والإدماج"[10] كما يرى بوحديبة "أن الذهاب للحمام، تعني في كثير من البلدان العربية ممارسة الحب ،ذلك أن الحمام بما ينطوي عليه من عناية هو تحضير أيضا للفعل الحسي فهو خلاصة للعملية الجنسية وممهد له، والسلوك الحمامي سلوك مسبق ويلي العملية الجنسية، وهكذا يترابط التطهر مع الجنسانية، ويتبين الحمام بمثابة الوسيط الضروري بين المتعة الجنسية حيث يتجنس المسلم ويفقد طهارته، ويستعيد طمأنينة التي توفرها له الطهارة المستعادة ".[11]

فمن بين الحالات المدروسة هناك من تقول **"أنا زوجي ديما يحب يدير العلاقة الجنسية بعد الحمام على خطرش نكون شابة ونقية وحمرة من خدودي، ونكون لابسة كسوة جديدة لهذا بعد الحمام يقوم بالعلاقة الجنسية"** (الحالة الثالثة، 28 سنة، متزوجة).

فحياة المرأة عبارة عن حالات الطهارة المكتسبة والمفقودة، والنجاسة المزالة ثم المستعادة، فليست المرأة طاهرة بشكل نهائي، كما أنها ليست أبدا محكومة بالنجاسة، الطهارة حالة يمكن بلوغها والتطهر فن يمكن اكتسابه.

فالحمام كوسيط يستوجب الدخول في الواحد منها ضرورة الخروج من الآخر فتتمثل الحدود، بين الناجس والطاهر في الطهارة.

2 . الطهارة من الجنابة:

يقول الله تعالى: "إن كنتم جنبا فتطهروا"[12] وعلى هذا الأساس فإن الجنابة مصدر النجاسة والدناسة يجب التطهر منها قبل أداء فرائض الدين ومسألة الطهارة من الجنابة اكتسبت صبغة دينية من ناحية، ومن ناحية أخرى هي قديمة، قدم الإنسان وهي مازالت تعيش معه "فاحترام اليهود للطقوس التطهيرية أثر على قواعد حياة المسلمين الذين أثروا بدورهم على تقاليد البحر الأبيض المتوسط منذ القرن السابع للميلاد[13]، فيحمل لفظ الجنابة حسب تفسير صاحب اللسان عدة معان "فالجنابة، المني والجنس الذي يجب عليه الغسل بالجماع وخروج المني"[14]، فقد حث الإسلام على التطهير من الجنابة، وجاء الأمر بالغسل، فالطهارة لها بعد رمزي أكثر مما هي مجرد مسألة تنظيف مادي hygiene لأن في غياب الماء، بإمكان المسلم التيمم باستعمال الحجر والتراب وهي ممارسة لا تنظف، بقدر حالها بعد رمزي وطقس ديني يخضع له الجسد، فطهارة الجسد ليست مسألة نجاسة مادية فقط، بل لها أبعاد أخرى، أما في حالة ممارسة الجنس، يتحتم الإقبال على اغتسال الحاصل في الوضوء

فالطهارة من الجنابة في جوهرها تهدئه للحدة النفسية والبدنية التي يسببها الفعل الجنسي، فتضع الطهارة بكل ما تعنيه الكلمة بها لأخطر حالات الاغتراب للإنسان "فيمكننا القول أن المرأة على جنابة تصبح جنبا (أي غريبة) ولا يتسنى لها الخروج من غربتها والعودة إلى القدسي إلا عن طريق الطهارة بالاغتسال فالطهارة هي أساس العودة إلى الحالة الإيجابية"[15]

تجد المرأة الحمام أفضل مكان للاغتسال لوفرة الماء فيه لتستر طهارتها المفقودة عن طريق الجنابة، وهذا ما صرحت به معظم المبحوثات حين سألتهن عن المكان المفضل للتطهر **أنا نحب نغسل من الجنابة في الحمام على خطرش ما عنديش دوش في بيتي** (الحالة الثانية 33 سنة، متزوجة)

وأخرى "**واحدة كي تكون على جنابة ما كانش كي الحمام باش تطهر فيه على خطرش الطهارة تكون في مكان نقي وماء بزاف** "(الحالة الثالثة-28 سنة، متزوجة)

فحسب تصوراتهن يربطن الطهارة الجسدية بالطهارة الطقوسية أي أنها لا تكون طاهرة من الجنابة بدون أن تنظف جسدها من الأدران معنى ذلك طهارة الروح من طهارة الجسد، لكن سرعان ما يتغير هذا المفهوم والرموزية للحمام عبر المواسم والمناسبات فنجد في فصل الصيف بإمكان المرأة الاغتسال في البيت وهذا ما يؤكد دور المناخ في سلوك المرأة اتجاه الحمام، وهذا ما عبرت عنه إحدى المبحوثات في الحمام " نقدر نغسل من الجنابة في الدار كي نكون نقية من الوسخ على خاطر الماء قليل يكفي باش نحي الجنابة " (الحالة السادسة، 32 سنة، متزوجة)

فيبدو أن جسد المرأة هو الأكثر خضوعا لمسألة الطهارة، فهذه التصورات لوسائل الطهارة وعلاقته الوطيدة بعالم النجاسة جعلت من المرأة كائنا دونيا دينا ومقصيا من الطهارة الصافية الجسدية والروحية التي يحتمها ولوج عالم القداسة، فمسألة الطهارة ليست حكرا على العرب والمسلمين بل بينت بعض الدراسات الأنتروبولوجية، أن فكرة الطهارة من الجنابة اعتقاد موجود لدى عدة مجموعات في مناطق مختلفة في العالم.

الطهارة من الحيض:

رغم اختلاف النصوص الدينية السماوية وصرامة أحكامها في تفسيرها وطرحها لمسألة حيض المرأة وأسبابها، فإنها اتفقت على جعل المرأة الحائض غير طاهرة ومبعدة من حقل الممارسة الدينية، أو أن فترة الحيض يظل الحيض رغم أنه خارج عن إرادة المرأة ، عائقا أمام طهارتها الدائمة التي لا تمكنها من ممارسة طقوسها الدينية .

" فتحيضت المرأة معناه تركت الصلاة أيام حيضها واستحيضت المرأة أي استمر بها الدم بعد أيامها ، وإنما خص الست والسبع لأنهما الغالب على أيام الحيض فالطهر هو نقيض الحيض، وطهرت أو طهرت المرأة (اغتسلت من المحيض)[16] ويقول الله عز وجل "ولا تقربهن حتى يطهرن، فإذا طهرت فأتوهن من حيث أمركم الله"[17] فدم الحيض هو دم مدنس ومتسخ وفاسد لفظه الجسد، ومما يزيد من دناسته أنه يخرج من العضو التناسلي الجنسي للمرأة ، فقداسة المرأة محكومة بهذا المعطى المرتبط بنجاستها، فالمرأة واجب الطهارة بعد الحيض، إذا أرادت أن تقبل على الطقوس الدينية التي توقفت عليها كالصلاة والصوم ودخول المسجد ولمس القرآن وحتى قراءته فهو يعني أنها طيلة هذه الفترة كانت غير مستعدة للمثول أمام الخالق إلا بعد الطهارة الكاملة، وهي التي تتحقق بالاغتسال "فالحمام قبل كل شيء يعمل على تغيير نظام المؤمنين، تغير نظام الجسد الذي يمر طقوسيا من حالة نجاسة حالة القداسة والاندماج"[18]

فالطهارة تمكنك لتحقيق الآمان ، كما يؤكد مالك شبال في قوله " أنه يفرض على المرأة برنامج طهارة دقيق، لأن سيلان الدم حسب الفقهاء يجعلها كيانا متسما بالطهارة الظرفية ويعتبر المعادون للمرأة أن هذه الطهارة مزمنة كما يجعلها الحيض غير قادرة على القيام بواجبها الزوجي"[19] فالاعتقاد بالدم الحيض في ثقافتنا العربية وتراثنا الشعبي بدم الفاسد والعزلة التي تعيشها المرأة خلال فترة الحيض يؤثر على حالتها النفسية ويبعث على الخوف والرهبة والتقزز، على المرأة أن تعمل على إخفائه وستره لأنه علامة العار والدنس وخوف الآخر، ولا تفوتنا الإشارة إلى ما ذهبت إليه دوغلاس في تفسيرها لدم الحيض وما يحيط بها من اعتقادات "فقد اعتبرت فترة الحيض حالة انتقالية وإن كل حالة انتقالية تشمل حالة غموض واضطراب وفوضى وخروج عن النظام، وأي شخص ينتقل من حالة إلى أخرى يكون هو نفسه في خطر كما يمثل خطرا على الآخرين"[20] أما الباحثة جاكلين شافر ترى أن "دم الحياة دم الجنس ودم الموت، ولقد كان موضوع عدة أساطير وتأويلات رمزية وسحرية حول العلاقة بين الزمن الدوري والموت والطهارة "[21].

فتجد المرأة الحمام كأفضل مكان الاغتسال تسترجع فيه توازنها الجسدي والنفسي أو مكان العبور النجاسة إلى الطهارة "فالحمام ينظف كل أعضاء الجسد الخارجية والباطنية لتحضر المرأة بعدها لحياة جديدة "[22]، كما تقضي في الحمام على كل آثار الحيض وتجعل جسدها طيبا لزوجها لتحضر لعلاقة جنسية، وهذا ما عبرت عنه كل المبحوثات حين طلبت منهن المكان المفصل للتطهير من الحيض فكل النسوة كانت تفضلن التطهر من الحيض في الحمام ،كما صرحت احدى المبحوتات بدلك**"انا كي نكون حائض قاع السيمانة نكون كارهة من روحي، وفي هده السمانة ما نقدرش نحمم، بصح كي نتنقى نروح للحمام خير من الدوش(الحالة الاولى-24 سنة، عزباء)**، والاخرى

تقول ''**نحاجة باينة ماكنش كي الحمام باش نغسل من الحيض على خاطرش قاع الااسبوع مانكوش عندي رغبة في حاجة، بصح كي نحمم نولي نقية وشابة وتكون عنجي الرغبة بالقيام بعلاقة جنسية**(''الجالة التالثة عشر-36 متزوجة). يتضح ان سلوك الحمام بالنسبة للمرأة، سلوك طقوسي تطهيري تفضله لاستجاع الطهارة المفقودة .

لتطهر من النفاس

"النفاس هو ولادة المرأة، فإذا وضعت فهي نفساء"[22] "ومدة النفاس هي أربعون يوما"[23] وبعد هذه المدة يستوجب على المرأة الاغتسال فدم النفاس هو نوع من التدنيس ظاهرة كونية بغض النظر عن المجتمعات واختلاف المعتقدات الدينية السائدة فيها، واعتبار المرأة كائنا غير طاهر ليس محددا بدم النفاس في فترة منحها الحياة، بل حتى يجنس المولود كما هو الحالة في الديانة اليهودية حيث لم يتوقف باب التحريم على المرأة بمنعها من دخول أماكن العبادة وتدنيسها كلما لمست، بل تعداه إلى وضع شروط تختلف مدة النجاسة فيها حسب جنس المولود ذكرا أو أنثى.

فالمرأة مدنسة مؤقتة نظرا للدم الذي يسيل منها، دم الحيض ودم النفاس وهذه كلها مخصوصة بالمرأة، فالدم بين المنظور الديني مادة مدنسة فهو رجس لزوما اللجوء إلى الوضوء الأكبر، ويذكر ابن باجي أن النوافس كن يغتسلن من النفاس وكان ذلك يوم الأربعين .كما وجدنا عند دوغلاس[24]، نفس الاعتقاد والممارسة عند نفساء مسيحيات القرون الوسطى، فمن خلال الميدان وجدنا النفساء تقوم بعدة طقوس تطهيرية وفي نفس الوقت علاجية، ويسمى حمام النافس بالعامية "قفيل النافسة ''حيث تأتي النفساء إلى الحمام برفقة أحد قريباتها وتكون لديها خبرة في تدليك وعلاج النافس، وحسب تصريحات إحدى المبحوثات " أن هذه العملية (قفيل النافس) **هي استرجاع الأعضاء التناسلية لمكانها** (سيدة متزوجة، 33 سنة)، فكل من الحالة (الثالثة عشر، 36 سنة) و(الحالة السابعة عشر، 42 سنة) " **أي مجهود لي تقوم به المرأة مور الزيادة تخلي الرحم يتغير من مكانه ما كنش كي الحمام حامي وسخون باش المرأة تحس بالراحة وكل الأعضاء تاعها ترجع في مكانها من الرأس حتى الكرعين)**

فالحمام بفضل خصائصه ومميزاته الهندسية والمعمارية أفضل مكان للقيام بتلك العملية.

دور الحمام في الطقوس الاجتماعية:

– طقوس العروس:

تعتبر زيارة الحمام طقس من طقوس العرس، والأفراح لا تكتمل إلا بدخول الحمام، حيث تقوم العروس بتخصيص يوم قبل العرس للذهاب إلى الحمام مع قريباتها أو صديقاتها، فقبل العرس لابد من دخول الحمام ليشكل بالتالي فاصلا بين الحياة العزوبية والحياة الزوجية، أو انتقال العروس من وضعية اجتماعية إلى أخرى في حياتها الاجتماعية وهذا ما سماه "فون غيناب" (Arnold van-Gennep)[25] بطقوس العبور، فمن بين الوظائف المتعددة التي يتميز بها الطقس " نجد ضمان استمرارية جماعة اجتماعية ما عبر تماسكها وتآزرها حول مثالية اجتماعية محددة"[26]

فيوم حمام العروس هو يوم فرحة للنساء لها طقوسها واحتياجاتها وإطارها الخاص كإضاءة الشموع والزغاريد والحلويات... ومن بين المرافقات اللواتي يصحبن العروس توجد الماشطة[*] وهي امرأة تلازم العروس لخدمتها والاعتناء بها ابتداء من الأسبوع الذي يلي حفلة العرس، إذ تتكفل بتجميلها بالطرق التقليدية ،فتضع لها الأقنعة والمرطبات الضرورية حسب طبيعة بشرتها ونوعيتها لتليين بشرتها، وتدلك جسمها، ومن بين فترة وأخرى تهمس في أذنها بنصائح وتوجيهات تتعلق بالحياة الزوجية، كذلك يخصص يوم بعد الزفاف مباشرة لتحمم العروس، فعند ذهابها للحمام، تلف جسمها "بالحايك" ولا يظهر منها سوى عينيها بعد أن غطي وجهها "بالعجار" وذلك حتى تخفي جمالها، وتأتي مع وفد من النساء سواء أقاربها أو أقارب الزوج حاملين معهم المشروبات "ليموناضة" والحلويات بشتى أنواعها، فهذا الاحتفال يعرف الجميع بحمام العروس، فمجرد أن تصل العروس إلى المكان تتعالى الزغاريد معلنة مجيئها، ثم يخصص مكان مناسب لها لتجلس عليها، وتشعل الشموع فوق رأسها، وهذا الحمام هو مناسبة لها لتستعرض ما لديها من مجوهرات، وثياب فاخرة التي تكون تقليدية محلية مطروزة من الخيط "المجبود" سواء كانت "كراكو" أو بلوزة "قسنطينية" أو بلوزة " وهرانية"

فهذا النوع من الألبسة هي التي تحدد الطبقة الاجتماعية للمرأة ومن خلالها تنتقل من مكانة اجتماعية إلى أخرى، أو خروجها من فضاء لآخر.

كما تحدد هذه الألبسة نوع ثقافة المجتمع المدروس فكلما اختلفت الثقافة، كلما كان هناك تميز من ناحية السلوك الثيابي "فالسلوك الثيابي الذي يمكن أن يحلل ثلاث جوانب: مراقبة اجتماعية للمظاهر (للهيئات)، تنظيم الانطباعات المستقرة عند الآخرين، العلاقة مع الذات، فالسوسيولوجي **فيشر** (1986) يوضح أن الثياب مثل البشرة (الجسم الثاني) يعتبر رمزيا عن مشركة الجسد الإنساني، من خلال خضوعه لبعض الرموز الاجتماعية".[27]

إن ارتداء المرأة الحمامية في المجتمع المحلي لأحد أصناف الملابس يبقى رهن بعض العوامل الثقافية والاجتماعية، لا تختارها بل تفرض عليها فرضا، فمن خلال الميدان لاحظنا أن الوضعية الأسرية للمرأة له تأثير على نوع اللباس الذي ترتديه، فلباس المتزوجة حديثا غير لباس المسنة، ولباس العزباء غير لباس المتزوجة، ولباس الغنية غير لباس الفقيرة، فكل منهن نوع خاص للثياب، حيث يعطي اللباس هيئة مميزة للجسد ودلالات جمالية معتبرة "الملابس تضبط مثل حلمية قابلة لإخفاء أو تمايز الجسد وبالتالي محرض الشهوات، إنه تماما الفن التشكيلي الذي ينتج من تغيرات الفصول"[28] وهنا نرجع إلى المدلول الثقافي للباس ودوره في إظهار الذهنيات والمخيال الاجتماعي، فالعروس في الحمام تجلب معها أروع العطور والماكياج، الفوطة والمنشفات والطاسات النحاسية المنقوشة، والدلو "السطل" الذي تضع فيه كل لوازم الاستحمام (المشط بأنواعها، الغاسول "شمبوا"، الصابون، الليفة، الحبل ...الخ...) فعند انتهاء الحمامات المرافقات للعروس من الاستحمام، تأتي أحدهن إلى قاعدة الاستقبال لتبلغ المرأة المكلفة بها (أي العروس) بأن الوقت حان لإدخالها البيت السخون، فتقوم الماشطة ينزع ثيابها ومجوهراتها بلطف، ثم تلف جسدها بالفوطة التي تكون على طراز رائع، ثم تنتعل القبعات فتدخل البيت إلى البيت السخون مع الزغاريد فتجد النساء ينظرن إليها بتعمن ويراقبن كل خطواتها ثم يتغامزن ويتهامزن مع بعضهن البعض، ثم تقوم الماشطة بتدليكها وغسلها قبل أن تنهض في الآخر لتجفيف جسمها بمنشفتين كبيرتين ذات ألوان زاهية، وتضع على رأسها "البنيقة" [*]

وأثناء ذلك تنطلق الزغاريد الفال الحسن العالية، مرافقة العروس إلى غرفة الاستراحة حيث تقوم الماشطة بتجفيفها ولبسها وتزيينها وفي الأخير يتم توزيع المشروبات والحلويات على الحاضرات.

2- مكان الخطبة :

لأن المجتمع تغير، تغيرت أيضا عادات النساء اللواتي صار الحمام بالنسبة لبعضهن مكانا لاستعراض ما يمكن من ذهب، فتراهن يلبسن ما غلا من حلي أثناء استحمامهن لإثارة غيرة الأخريات بطبيعة الحال، فيما ترى بعضهن يتغامزن وبعض الأخريات منشغلات بالاستحمام، في حين يتربصن بعض العجائز بالفتيات فتلاحظن وهن يجبن بأبصارهن ذات اليمين وذات الشمال لاختيار عرائس لأبنائهن .

فظروف الاستحمام جماعيا كانت تسمح للمرأة باكتشاف جمال الفتيات اللواتي يأتين مع أمهاتهن بغية الاستحمام فالأم قد تصادف ضالتها بين الفتيات اللواتي، فتتأمل الأم الفتيات الواحدة تلو الأخرى، وفي قوامها وتناسق جسمها وحركتها العفوية ومشيتها، حتى إن صادفت ضالتها المنشودة تعرفت عليها، وحصلت على عنوان منزلها من طرف المشرفة على الحمام "مولات الحمام" أو الكياسة .

فرغم أن هذه الظاهرة أصبحت قليلة في مجتمعاتنا إلا أن بعض الأمهات يعتبرن الحمام أفضل وسيلة لاختيار عرائس لأولادهن كما تذكر **سمية نعمان جسوس** "أنه في الماضي كانت أم الخطيب تأخذ معها كنتها المستقبلية لتفحص جسدها عن كثب وتلاحظ محاسنها التي قد تكون مخفية، خصوصا وأن وقتها كان من معايير حسن المرأة أن تكون ثخينة وكثيرة الشحم واللحم"[29] وهذا ما أكدته لي بعض المبحوثات المداومات على الحمام عندما طلبت منهن معرفة إذا كان الحمام مازال يحافظ على هذه الصيغة (مكان الخطبة)، وإذا كان بعض الأمهات قد اخترن لأبنائهن زوجات من الحمام، فقالت لي إحداهن "**شحال من وحدة اتخطبت في الحمام، مرة كنت نحمم، جمعت حدايا مرة كبيرة، عجبتها وحد البنت سقست عليها مولات الحمام وعلى أهلها، وعطتها كل التفاصيل عليها، ودات عنوانها وراحت خطبتها**" (33 سنة متزوجة وأم ل 3أطفال).

والأخرى قالت "**كاين ألي يحبو يختارو لأولادهم من الحمام، على خطرش في الحمام تكون عريانة، المرأة ألي تحب تزوج ولدها تشوف هاديك البنت على زينها الحقيقي بلا مكياج وبلا قش باش تشوف ألي كاملة، ما فيها شي حتى عيب**" (أرملة، 56 سنة أم ل5 أطفال)

هذا يوضح أن الحمام يوفر للفتيات بعض الفرص للخطوبة في كثير من الأحيان، ثم الزواج لأن بعض الأمهات يقصدن الحمام لغرض البحث عن الأنثى التي تلاءم أبنائها على مستوى الجسد ثم يقع التعرف في وقت لاحق على الطباع والأخلاق والسلوك، فالفتيات يقمن ببعض التصرفات والسلوكات من أجل جلب انتباه النساء إليهن من أجل خطبتهن وخاصة إذا علمن أن تلك المرأة تريد تزويج ابنها، وهذا ما يؤكد عن جور المرأة والأم في المجتمعات العربية الإسلامية حيث يفسر **نور الدين طولبي**"حين اكتشف ثغرة في تحقيقاته، بسبب استحالة القيام بالاستقصاءات مع النساء، فهن اللواتي يحيين الاحتفالات الطقسية المعروفة في المدينة ويحافظن عليها، إذ أن هناك حفل لا يتمكن من سبر غوره ولا يمكن التطرق إليه إلا من قبل المرأة الجزائرية، إذ حتى في الجزائر التقليدية يجب أن تلعب أهمية الأم، الزوجة، علاقاتها مع الأسرة، استقرار الحياة وأمنها داخل المنزل، ولقد قام الكثير من المحللين النفسانيين بانتقاد مفهوم فرويد حول دور الأب في المجتمع وتجاهله الظاهر لدور الأم "[30]

فنجد فرحة الحمام بالنسبة للعازبة ترتبط بالأمل، فقط يكون عليها أن تستعرض نظافتها بشكل غير مثير للانتباه، أن تمر أمام الذكور من العائلة أو أهل الحي وهي منحية الرأس إن صادف مرورها تواجدهم، فالحمام كذلك بالنسبة للعازبة فرصة لتتخلص من أثار الغبار والشمس على وجهها ليسترجع نضارته، أملا في زواج قريب، كما أشارت لي ذلك بعض تعليقات النساء.

3- طقوس مولود جديد

بينما أنا جالسة في قاعة الانتظار داخل الحمام أرصد سلوكات وحركات النسوة داخل الحمام، فإذا بصوت زغاريد تتعالى في المكان فتبادر إلى ذهني في البداية وصول عروس، فإذا بامرأتين واحدة منهما تحمل رضيع حديث الولادة، والأخرى تحمل حلويات فلما سألت الحارزة عن هذا الفعل أو الطقس فقالت لي: "**أن هذه العادة مازالت مترسخة لدى النساء وتتكرر دائما إلى دخول مولود جديد أول مرة إلى الحمام فتحضر الأم أو الجدة بعض العجائن (مسمن) في البيت وتحضر معها الحلوى لتقسيمها على المستحمات حسب قدرتها**".

فعند إدخال المولود إلى غرفة الاستحمام تتعالى الزغاريد وتشعل الشموع فهذه الشموع تختلف عن شموع العروس، لأنها عادية تباع عند الدكاكين وبعد الانتهاء من طقوس الغسل يدثر بمنشفات جديدة "luxe" ويلبس ثياب جديدة أيضا لأنه بمثابة يوم عيد لدى المولود، كما فسرت ذلك بعض المبحوثات، ويخرج أيضا بالزغاريد، وتبدأ مراسيم توزيع الفواكه والحلوى على الحاضرات بالحمام، وهذا الاحتفال يعتبر بمثابة فرح وسرور وترحيب بهذا المولود في الفضاء الجديد الذي هو فضاء الحمام كمؤسسة التنشئة الاجتماعية الجديدة "جماعة الحمام" وله تفسير قداسي يعتمد على أن المولود الجديد هو بمثابة "ملائكة" زار الحمام لأول مرة لهذا يجب أن يحظى بترحيب واهتمام من طرف الجميع.

الخاتمة :

يعد الحمام مؤسسة اجتماعية متعددة المهام، لا يقتصر دوره على نظافة الجسم وتطهيره فحسب، بل فضاء نسوي خالص يعقد فيه مراسيم العبور، كممارسة طقوس العروس، طقوس المولود الجديد الى جانب أنه مكان للخطبة،التي ترافقها سلسلة اجتماعية مختلفة من الطقوس التطهيرية، إذ يعتبر بالنسبة للمرأة أفضل مكان للعبور من النجاسة إلى الطهارة، لتسترد طهارتها التي فقدتها نتيجة الوظائف الحيوية للجسم التي تجعلها في النجاسة نتيجة الجنابة والحيض والنفاس، هذه الإفرازات الجسدية تسبب للمرأة نجاسة كبرى التي تتطلب التطهر الأكبر، فالحالات المدروسة تجد الحمام مكان مناسب لهذا التطهر والاستعداد للعبادة، فذهاب المرأة للحمام ينبع من همّ التخلص من النجاسة، ولكنه بما يحتوي من عناية بالجسد هو تحضير للفعل الجنسي، فهو في نفس الوقت مقدمة وخاتمة الأعمال الجنسية، فهناك ترابط بين التطهير والجنسانية .

الهوامش:

1. الطوالبي نور الدين، الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص3.

2. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، المجلد الرابع، الطبعة الأولى، بيروت، 1955، ص506.

3. الغزالي، الإحياء في علوم الدين، ج2، دار النشر، دار المعرفة، بيروت (د،ط) (د،ت)، ص222.
4. سورة التوبة، الآية 108.
5. سورة البقرة، الاية 222.
6. سورة الواقعة، الآية 79.
7. الغزالي أبو حامد، الإحياء في علوم الدين، ج2 ، مرجع سبق ذكره، ص 117.
8. Durkheim , Emile : les formes élémentaire de la vie religieuse , édition P.U.F , Paris , 1994 , P 584 – 585.
9. دنس : تعني توسخ، الدنس في الثياب: الوسخ كما أن الدناسة سوء في الأخلاق: رجل دنس المروءة : دنس عرضه: إذا فعل ما يشينه [ابن منظور، لسان العرب، مجلد السادس، الطبعة الأولى، 1960 ، ص88.]
10. صوفية السحيري بن حتيرة ، الجسد والمجتمع، دراسة أنتروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، محمد علي الحامي للنشر، الطبعة الأولى، تونس، 2008 ، ص 289.
11. عبد الوهاب بوحديبة، الجنسانية في الإسلام، ترجمة محمد علي مقلدا، دار النشر سراس، تونس ، 2000 ، ص 215.
12. سورة البقرة الآية : 222.
13. Bonnet ,Jocefyne : histoire de l'hygiène et de la toilette corporelles , Paris , édition gallimard , 1990 , P 634.
14. ابن منصور، لسان العرب، دار صادر، بيروت المجلد الأول، الطبعة الأولى، 1955، ص289.
15. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد السابع، بدون طبعة، ص289.
16. سورة البقرة، الأية : 222.
17. Mechin, colette : l'usage culurel du corps, Ed l'ARMATHAN, Paris 1997 , P 45.
18. Chebel , Malek : l'imaginaire arabo-musulman , pressuniversirtaire de France , Paris , 1993 , P 319.
19. Douglas , Mary : de la souillure , édition la découverte , Paris , 1992. P13.
20. Jacqueline , schaeffer : le fil rouge du sang de la femme ,ed champ psychosamatique , Paris , 2005 , P40.
21. Bonnet, Jocelyne, histoire de l'hygiène et de la toilette corporelles, in collective: histoire des mœurs, volume I,éd gallimard,1990,P 634.
22. ابن منظور، لسان العرب، المجلد السادس، الطبعة الأولى، 1960، ص238.
23. استخدام عدد أربعون له دلالات متأخذة، فهو يرمز إلى دورة الحياة cycle de la vie كما أنه يسجل مرحلة انتقال من حالة إلى أخرى، من نظام إلى آخر ومن معانيه أيضا: الانتظار، التحضير، الاختبار والعقاب، كما نجده في الطقوس، الموت، (انظر صوفية السحري بن حتيرة، مرجع سبق ذكره)، ص 191.
24. exigeait des femmes, qu'elles se purgent pendant quarante jours après l'accouchement, Douglas Mary, de la souillure,éd la découverte ,paris , p 5.
25. Van- Gennep , Arnold : les rites de passage , Ed Picard ,paris, 1981.
26. Tierry Coguel , D'allondans , Rites de passage rites d'initiation : lecture d'arnold van- gennep , la vap , les presses universitaire de laval, 2002 , P11.
*. الماشطة بمصر تسمى بالبلانة
27. Maisonneve , Jean , Bruchon , Schweitzer , le corps et la beauté , Ed ,puf Paris , 1999. P5.
28. عبد الوهاب، بوحديبة :الجنسانية في الإسلام، مرجع سبق ذكره ، ص 175.
* البنيقة : غطاء للرأس من قماش حريري مطروز ينزل طرفاه ليلفها قبل أن يلتفا بدورهما حول الرأس .
29. سمية نعمان جسوس، بلا حشومة النسائية في المغرب، ترجمة عبد الرحيم خزل، المركز الثقافي العربي، الطبعة 1، 2001 ، ص93.
30.نور الدين الطوالبية، في الاشكالية المقدس، ترجمة وجيه البعيني، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الاولى،1988، ص9.